قراءة اسلوبية في مستويات الخطاب
(كتاب منة المنان في الدفاع عن القرآن للسيد محمد محمد صادق الصدر) اختيـــاراً

د.جابر محيسن عليوي م. م. هادي شندوخ حميد

جامعة ذي قار / كلية الاداب / قسم اللغة العربية

المقدمـــة

يتناول البحث الذي بين ايدينا قراءة اسلوبية في كتاب مهم من بين الكتب التي تصدت للدفـــاع عن القرآن بـــرد الشبهات ,وهي محاولة عصرية لكاتب لامع غني عن التعريف قد برزاسمه وعلا نجمه في سمـــاء التأليف حيث الرصانة فيالاسلوب والعمق في العبارة والاستدلال العلمي البحت الذي يتضمن حججاً منطقية وفلسفية وإصولية رافدة للمقصد المراد ببناء معنى جديد أو بهدم راي سابق أو بتعضيد حجة , فضلاً عن الذوق الفني وتنوع الشاهد من الشعر والحديث والامثال والحكم التي تستعمل في اسناد الحجة بتوضيح المطلب وهذا دليل على ثراء معرفته بآليات اللغة واستعمالاتها بشكل عام وبشكل خاص يكشف البحث عن قراة السيد الصدر وفهمه للنص القرآني من

حيث تبيان استنطاقه للنص أوّلاً وكيفية استعماله للأدوات المعرفية في التحليل ثانياً .ومـــن هذه الحيثية تمخضت جنبتان :-

الجنبـــــة الأولى :- فرز الادوار التي انصبت عليها رؤيته المعرفية كدور(المُرسِل ,الرسالة , والمُرسَل اليه) كعلامات كبرى للبحث .

الجنبـــــة الثانية :- توضيح آليات الحفر المعرفي في التحليل بتبيان إصولها والمرتكزات التي انبثقت منها

كعلامات صغرى للبحث .

أولاً :- دور المُرسِل :

أن قراءة نص مقدس كالقرآن الكريم لابد وان يتجلى فيهما صاحب النص (المُرسِل) بمـــوضع مـــن الإكبار والإجلال ((وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ)) [الإخلاص: ٤] هذا التجلي يتباين من حيث التركيز والاهتمام بين مفسر وآخر ,فمنهم من ينصَّب على دراسة (الرسالة) بتبيان النكت واللطائف التي تبرز قدسيتها كنص معجز ومنهم من يؤكّد دور(المُرسِل إليه) وكيفية استيحائه لما ينطقه القرآن ومنهم من يكّثف الاهتمام بدور (المُرسِل) بوصفه للامتناهي والمطلق الذي ليس لصفته حد محـدود ولا نعت موجود ,ومنهم من يعني بمستويات الخطاب (المُرسِل ,المُرسل إليه ,الرسالة) بوصفها سلسلة متـرابطة لايمكن عزل إحدى حلقاتها عن الأخرى لأنها ادوار مشتركة تعبر عن وحدة الهدف الذي خلق الانسان مـن اجْلهِ ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)) [الذاريات : ٥٦] لأنّه سبحانه ليستْ له غاية لذاتَه إذا هو الكمال المطلق ولا يهدف الى شيء من اجل نفسه بل الهدفية والغائية لعبيده ومخلوقاته إذ كل فاعل في الوجود الممكن يهدف في فعله الى الكمال بشتى انواعه المادية والمعنوية,ولكنَّها (الكمال المطلق) والوجود الواجب لايهدف الى شي لذاته ,بل لتكميل الخلائق رحمةً ولطفاً وتحنناً وتكرماً (١)

ومن ثم يمكن تلمس هذه المستويات الثلاثة بوضوح في الكتاب المعروض في البحث ,اذ عمد السيد الصـــدر الى ابراز هذه الأدوار عند حديثه في المقدمة وفي أثناءالكتاب ,ففيما يخص دور المرسل

يقول السيد الصدر (لايمـكن السؤال بأن الله تعالى لماذا قال كذا ولم يقل كذا لانهُ سبحانه إنمّا يريد أنّ يوصل المعاني إلينا لا أكثر واختياره لهذه الالفاظ يوافق الحكمة والفصاحة والمصلحة التي في عِلْمه)[٢] فالسيد يُثبت انَّ الحالة اختيارية للمتكلم ((المُرسِل) فهواعلم بكبائر الامور وصغائرها ((أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)) [الملك : ١٤] وبذلك تتضح الاختيارية جليةًكأ أطروحةٍ عند السيد في حديثه عن الوجوه التي يحملها النص القرآني لانّ عملَ المُرسِل يتمثل بأنه يقوم بوضيفة إبلاغالنص [٣].وكشف الدلالة القصدية للنـص منوطة بالمتلقي أو المَرسَل اليه فهو الذي يعاين النص ويتأمله فيكشف عن خفاياه ويجلو غوامضه ويقدم ظاهره وباطنه في صورة قد تروق الناضرين وقد تصرفهم عنه بإيجاز [٤]. امَّا تطبيقات السيد وتأكيدهُ على دور المُرسِل فهي واضحة عند تناوله بعض الآيات ,فمثلاً عندما يذكر قوله تعالى ((كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)) [التكاثر : ٥ - ٦] يتسائل السيد هنا لماذ فُضّلت (لو) على غيرها وهل هناك مصلحة في ذلك ؟ فيقول : جوابه على اكثر من وجه :

الوجه الاول : إنّ ذلك امر اختياري للمتكلم فينسدّ السؤال لانهُ من غير المنطقي أنْ تسأل المتكلم عن الفاظه [٥]

وهذا الوجه هو الذي يهمنا كأطروحة في الاهتمام بدور (المُرسِل) اذْ قلما نجده عند المفسرين , ومنهم الزمخشري اذ يقول : (وقال : لو تعلمون محذوف الجواب يعني تعلمون ما بين ايديكم علم الامر اليقين ,أي كعلمكم ما تستيقنونة من الامورالتي لو وكلتم بعلمها لفعلتم ما لا يُوصف ولا يكتنه ولكنّكم ضِلاّلٌ جَهَلَةٌ)[٦]

وهذا توجيه واضح في ترك الإشارة أو العناية بدور (المُرسِل) الذي ضَمّنه السيد الصدر كأطروحة في الحديث عن الآية . مع إنّنا نتلمس احياناً اشارةً الى دور المُرسِل عند بعض المحدثين لكنها ليست بالوضوح الذي نجده عند السيد الصدر قال السيد فضل الله في تعليقه على الآية موضع الشاهد يقول: (ويتكرر الرفض للموقف الذي وقفوه ويتاكد الوعي المستقبلي بأنكشاف الحقائق التي تحدد لهم وضوح الرؤية للأمور) [٧] .فالمؤلف بهذه الرؤى يرجع الحدث المؤثر في المخاطبين وحلآوه في القريب العاجل الى دور المُرسِل وهو الله جل وعلا.وبذلك يعد التركيز على دور المُرسِل – كركن من مستويات الخطاب - عاملاً مهماً في فك الشفرات المتحكمة في نظام النص [٨] ومن الصور التي اعتمدها السيد في اطروحته لفك معنى النص والتي نبّه فيها على دور (المُرسِل) قوله تعالى : ((كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)) [التكاثر: ٣]حيث علق على ذلك بقوله (إن متعلق العلم مجهول ينال كل واحد منها حسب استحقاقه وترتفع الغفلة بالموت ,وقد حذف المتكلم جل شأنه عمداً ليذهب به الذهنُ كل مذهب وليذهب به الخيال كل مذهب) [٩] اذ علل السيد دلالة حذف الفعول به للفعل ((علم)) بمقصدية المُرسِل) الذي اراد توسعة ذهن المتلقي في ما يلاقيه بعد الموت ,وهذه السعة تدل على أنّ كلامه تعالى لايضاهيه كلام (فإذا كـان الكلام البشري يشكل نمطاً واحداً على قاعدة التعدد والتنوع بفعل تكثر البشر وتعددهم , فإنّ الكلام الآلهي انماط دينامية دالة عليه تعالى وآيات لا تنفذ ولاتتغير)[١٠]وتتوضح هذه النمطية من التعدد لدور المرسل في تعليق السيد على قوله تعالى ((ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)) [التكاثر :٨] فيتسائلُ السيدُ من هو السائل عن النعيم يومئذ وما هو النعيم المسؤول عنه (بناءاً على قراءة الضم) فياتي الجواب: السائل هو جهة الله تعالى سواء قلنا هو الله تعالى بالمباشرة او مـن قبيل الملائكة او امير المؤمنين او الضمير الحي [١١] فنرى ان المُرسِل قد توزع على عدة اصناف فهما من التساؤل الصادر عن النعيم وهي جهات صادرة عن المركزية المطلقة للمُرسِل تبارك وتعالى حسب ما فهمه السيد من مضمون الآية , وتارة يعبر السيد عن المُرسِل بصيغة منطقية وهي (المحمول منه). وهذا ما يمكن انّ نسمـهُ بـ (تنوع المصطلح)لتداخل القضايا المنطقية والاصولية والفلسفية عنده مع اللغة في الكشف عن جدلية الخفاء الكامن في باطن النص ومن ثم استنطاقه بهذه الاليات المعرفية ليصبح موضع تجلٍ بعد انّ كان موضوع خفاءٍ وكمون.

ففي قوله تعالى : ((مِّن كُلِّ أَمْرٍ)) [القدر :٤] يحاول السيد انْ يضع اطروحةً لمعنى الامر من خلال التسأول ... فيأتي الجواب بقوله : ((ان يكون المراد هو مفرد امور أي (اشياء) فيكون المعنى بأذن ربهم من كل شيءٍ ,وهذا ينقسمُ الى ثلاث اطروحات ,ما يهمنا منها هنا الجانب الاعلى (المحمول منه) وهو ما خرجت منه الاوامر [١٢]وهذ

يهمنا من حيث التداخل في ما أسميناه بـ (تنوع المصطلح) من المُرسِل الى (المحمول منه) فأستعماله هنا هو الذي يحدد المعنى والمعنى مطابق للاستعمال [١٣] أي ان العلاقة التي بين الألفاظ ومعانيها هي علاقة فكرية ذهنية قاسمها المشترك هو العقل المجرد [١٤] وينبعث اهتمام آخر من لدن السيد الصدر على دور المُرسِل كأطـروحة يضفي عليها نظرة تقديسية حـول التمجيد والتعظيـم لآلاء الله المعطـاء ونعمـه ((وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورا))[الاسراء : من الآية ٢٠] وعند تعرضه لقوله تعالى ((اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ))[العلق : ١] فيتسائل السيد

هنا لماذا جاء بالاكرم دون الكريم ,فيجب كاطروحة محتملة ((إننا لو نظرنا من زاوية الله سبحانه وتعالى – لو صح التعبير – لوجدنا أنّ كرمه كاف باعتباره مدبراً وخالقاً ,ونه يدير الكون باستمرار ولم يغفلْ عنه طرفة عين ولكن ذلك في نظر الله سبحانه وتعالى غير كاف بل لأنه أي الكون يحتاج الى أكثر من ذلك وهو التعليم والتكامل فهو دائم الإفاضة على عباده قال تعالى : (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)[ق: من الآية ٣].))[١٥]

ثانياً :- دور الرسالة :

وهي نقطة الاتصال بين محورين احداهما (المُرسل إليه) فهي حلقة الوصل التي من خلالها يمكن رصد التكليف بالإلهي المفروض على البشرية ،إذ تتمثل هذه الحلقة بكتاب الله المنزل وما فيه من تشريع وتكوين آلهيين وقيمة هذه الرسالة تتجسد بأحتفاظها (بمحتواها العقائدي والتشريعي فهو الذي يمكنها من مواصلة دورها التربوي وكل رسالة تفرغ من محتواها بالتحريف والضياع لاتصح اداة ربط بين الانسان وربه لانَّ هذا الربط لا يتحقق بمجرد الانتماء الرسمي بل التفاعل مع محتوى الرسالة وتجسيدها فكرةً وسلوكاً ومن اجل ذلك كانت سلامة الرسالة

الإسلامية بسلامة النص القرآني الشرط الضروري لقدرة هذه الرسالة على مواصلة اهدافها)[١٦].

وتأتي هذه المواصلة من خلال أي قراءة للنص تكشف هي لأخرى عن ذات المبدع [١٧] لأنَّ ذات المبدع هي المُكّون الأول لعملية الخطاب فمعرفته تعد (بمثابة الإضاءة والتنوير لمعرفة النص الذي يكتبه أو يبدعه)[١٨]وبذلك الترابط بين هذه المستويات (المُرسِل ,الرسالة ,المُرسَل إليه) نستطيع أنْ نضع الرسالة ضمن المعطى الذي استند إليه (ياكوبسون).لتكوين نموذج عملية الاخبار والتواصل المنبثقة من عناصره الستة [١٩]ضمن المخطط المعروف [٢٠]

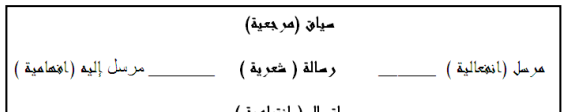

من هنا اخذت حلقة الوصل المتمثلة بـ (السياق ، والرسالة ، والاتصال) حيزاً في منهج السيد الصدر المتبع في كتابه (مِنّة المنّان في الدفاع عن القرآن) ولكن وفق صور يمكن تلمسها من خلال اشارته المتمثلة بما يأتي :

١- المنهج اللاتفريطي : -

انطلق السيد في هذا المنهج من الآية القرآنية المباركة ((مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ)) [الانعام: من الآية ٣٨] مُحلّلاً ومعللاً ومعترضاً ، إذْ بواسطتها إستطاع أنْ يحدد مكانة القرآن الكريم (الرّسالة) ومدى شموليتها واستيعابها لقضاياالكون . يقول السيد عن هذا المنهج ((هو باب واسع يمكن على أساسة صياغة كثير من الأطروحات لكثير من المشاكل التي قد تُثار في عدد من المواضع او المواضيع)) [٢١].اما تطبيقات هذا المنهج فنجدها فيما يأتي :

أ - القرآن يحتوي على اللحن بالقواعد العربية ، اذ يعلل السيد ذلك بقوله ((ان القرآن يكون محتوياً على اللحن بالقواعد العربية ومخالفتها وعصيانها كما هو المنساق من بعض آياته وذلك لان المقُتضى قوله تعالى ((مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ)) [الإنعام : من الآية ٣٨] هو احتواء القرآن الكريم على كل علوم الكون ظاهراً وباطنـاً ،

ومن المعلوم ان هذ الكون الذي نعرفه يحتوي على النقص كما يحتوي على الكمال وفيه الخير والشر كما فيه القليل والكثير - اذن – فيمكن التمسك بأطلاق تلك الآية الكريمة لاحتواء القرآن على كل ما في الكون بما فيـــه ما نحسبه من النقائص والحدود ولاضير في ذلك ما دامت هذه الصفة تُعد كمالاً له من حيث الاستيعاب والشمول واللاتفريط))[٢٢].

ب- الفصاحة والبلاغة : يقول السيد (فكما يحتوي القرآن الكريم على الفصاحة و البلاغة وهي الصفة الاســاسية فيه فقد يحتوي ايضاً بل من الضروري ان يحتوي على ضدها لانهُ (مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ) [الانعــام : من الآية.٣٨][٢٣]

جـ - القرآن يضم لغات اخرى : يذهب السيد الى ذلك بقوله (وكما يحتوي على اللغة وهي سمته العامة ينبغـي ان يحتوي على لغات اخرى)[٢٤]

د – القرآن له باطن وهذا ما اشار اليه السيد الصدر وفق المنهج المتبع بقوله (وكما يحتوي على الظاهر العــرفي ينبغي ان يحتوي على الباطن الدّقي)[٢٥] وهذا يعد اضاءة واضحة على عضمة (الرسالة).وبعدهــا الواســـع المهيمن على الظاهر والباطن ,فالوصول الى تلك العظمة (هو من اعظم الارباح والغنائم فأن غاية الانســـان ان يصل ببحوثة واستدلاله العلمي الى الحقيقة التي تشوّق لها المفكرون واتعبوا انفسهم من اجلها وهذه الحقيقة في اكبر صورها واوضح مصاديقها هي وجود الله ومن ثم كان الايمان به وصولاً الى الحقيقة المطلقة)[٢٦] ولأجـــل تلك الحقيقة وهي الوصول الى الكمال المطلق اللامتناهي الذي صدرت منه الرسالـة اللامتناهيـة (القرآن الكريم) ترتب مفهوم الاستيعاب واللاتفريط عند السيد الصدر حتى تبلور كنظرية ثابتة عنده في تحليلـــه لبعض الآيات القرآنية كما في قوله تعالى : ((وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ)) [الفيل : ٣] فيذكر السيد انَّ هذه السورة رغم صغرها استعملت الفاظاً غير عربية عديدة وهي (الفيل ,والاابابيل ,السِّجيل) ونسبتها الى السورة ككل كبيـــرة بل هي اكبر نسبة من أي سورة من سورة من القرآن الكريم

وهذا الاستعمال وأمثاله لا ينافي عربية القرآن الكريم لان هذه الالفاظ كانت سائدةً ومستعملةً بين العرب فاتصفتْ بكونها عربية فاستعملها القرآن بهذه الصفة وهنا يأتي التعليل بالمنهج اذ يقول ((إنَّ إستعمالها تطبيق من تطبيقاته قوله تعالى ((مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ))[الانعام : من الآية ٣٨] أي استعمال عدة لغات في القرآن الكريم))[٢٧]وهذا دليل على انَّ الرسالة المعجزة تمثل سبلاً شتى ومفاهيم تؤلف ثوابت النظام الآلهي في الكون الذي يعد بنية من بني الوجود وقانون من قوانينه ولازمة من لازمات حركته [٢٨] ومن الآيات الخرى التي ادخلها السيد ضمن قاعدة اللاتفريط قوله تعالى : ((أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ)) [العاديات:٩] حيث دار الحديث عن نوع الفاء في الآية المباركة ,فهي إما انْ تكون لإعطاء النتيجة من قوله تعالى ((إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ))[العاديات:٦] وهي نتيجة عقوبة وتهديد على المشهور أو تكون فاء جواب الشرط متقدمة كأنّها داخلة على قوله تعالى : ((إِنَّرَبَّكَ)) [السجدة : من الآية ٢٥] وان جملة : (افلا يعلم) جواب شرط متقدم : وهذ واضح لو قلنا بضرورة دخول الفاء ولو باعتبار أنهُ أفصح والقرآن يختارالافصح واما اذا لم نقل بضرورتها وقلنا ان عدمها لا ينافي الفصاحة ,أو قلنا للقرآن أنْ يختار بعض مالايتفق مع الفصاحة من باب ((مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ))[الانعام : من الآية ٣٨] يعني حتى ما ينافي الفصاحة [٢٩]

نظرية الجري والانطباق

من الآليات التي استعملها السيد في منهجه كاطروحة لتحليل النص هي ألاعتماد او الاستدلال بالحديث الذي من خلاله يمكن وضع نظرية أو قاعدة يستُطاع تبنيها في معالجة النص القرآني وهي نتيجة افراز للحديث المروي عن الامام الصادق(ع) (إنَّ القرآن حي لم يمت وإنَّه يجري كما يجري الليل والنهار وكما تجري الشمس والقمر ويجري على أولنا كما يجري على آخرنا) (٣٠) وفي نص آخر يؤيد هذهِ النظرية هو (أنَّ القرآن يجري في الناس مجرى الشمس والقمر وإنه لو نزل بقوم ومات أولئك القوم لمات القرآن ، ولكنه حيٌ لا يموت لأنه نازل من الحي الذي لا يموت)(٣١) من هنا أخذ السيد يوجه بعض ألآيات على وفق الجري والانطباق الذي يلائم الواقع من ذلك ما ذكره من قوله تعالى{ إِذَا جَاء نَصْرُ اللّهِ وَالْفَتْحُ}{النصر١}يعلق السيد على ذلك بأنه يمكن أنْ يكون ذلك النصر والفتح إخباراً عن الماضي أي أنَّ فتح مكة قد حصل وقد رأيت الناس فعلاً يدخلون في سبيل الله أفواجا فسبح–أذن- بحمد ربك اويكون إخباراً عن المستقبل أي سوف يحصل ذلك وعند ذلك سبح بحمد ربك واستغفره ، فمن هنا لا ينبغي لنا أنْ نفهم من القرآن الكريم في أي موضع معنى جزئيا ،بل يتعين فهم المعنى الأوسع والاهم أعني أي نصر وفتح فكل نصر وفتح حصل في الماضي أو يحصل في المستقبل فهو سبب لانطباق جواب الشرط بذكر حمد الله واستغفاره (٣٢) هذا الشكر بذكر الحمد والتسبيح والاستغفار يبقي التواصل الروحي بين العباد وربهم حتى لايشعروا بالاستقلال عنه ، الذي قد يوحي به الشيطان عندما يدفعهم الى الاستغراق في اوضاعهم الذاتية بعيداً عن الله فيُخيل اليهم ان ما حصلوا عليه كان بجهد ذاتي لابتوفيق ألهي فيستكبرون عن عبادة الله وينحرفون عن السراط المستقيم (٣٣)وقد يُعترض على هذه النظرية بكونها تعارض اسباب النزول أي ان لكل آية سبب نزول معين هنا يجيب السيد بثلاث اطروحات :- (٣٤)

١- انه لاينبغي الاخذ بروايات موارد النزول واسبابه لكونها ضعيفة السند وغير مؤكدة الصحة .

٢- أنَّ المهم في نظر الجميع أنَّ كل آية من آيات القرآن الكريم تُعد قاعدة عامة واسلوب سلوك قابل للانطباق على جميع المستويات وعلى جميع المجتمعات بل على جميع الاجيال بل كل الخلق اجمعين فان القرآن هو خلاصة القوانين والمعارف المطبقة فعلاً في الكون والموجود في اذهان الاولياء والراسخين في العلم .

٣- إنَّ اسباب النزول لن تصلح الا اطروحة من عدة أطروحات يمكن أنْ تشكلَ جواباً على السؤال الرئيس في ايّ مورد ,واما ان تكون الجواب الرئيس أوْ أنْ تكون سبباً لظهورالقرآن فلا ، مالم تقوم عليها بنفسها حجة شرعية كافية مما يمكن توجيههُ عند السيد على وفق نظرية الجري والانطباق قوله تعالى ((إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَر))[الكوثر : ٣] على الرغم من أن سبب نزولها كان في العاص بن وائل السهمي [٣٥] اذ يرى السيد الصدر : انَّ شانئك مطلق المنتقد والعدو وكل عدو للنبي (ص) يصدق عليه ذلك ولاينبغي ان نحمله .. من انَّ المراد به (العاص بن وائل) لأنَّ ذلك على خلاف مضامين اخبارالجري كالذي ورد عن الامام الصادق (ع) فمثل هذه الاخبار تكون قرينة على التجريد عن الخصوصية ليس هنا فحسب بل في كل القرآن [٣٦]

ومن هذا القبيل قوله تعالى ((أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ))(الماعون : ١) فيتسائل السيد عن معنى الذي فيقول كإطروحة :- انْ يكون المراد به الجزئي إنْ فهمنا في المعنى المادي وهو الفهم الضيق لأنه خلاف اخبار الجري وعلى هذا التقرير يكون المرئي جزئياً او انْ يكون المراد به الكلي او اسم الجنس ومعه لايحتمل ان تكون الرؤية حسية لان الكلي لانراه حقيقة بل مجازاً فأنْ اسُندت الى الكلي فأنما المراد

مصاديقة وافراده فتتعين عندئذ العقلية او القلبية لأن العقل (وهو النفس الناطقة) يُدرك الكليات ادراكاً ابتدائياً كاملاً أي بغض النظر عن افرادِه [٣٧]

٣- قصور اللغة :

ومن جملة الموارد التي يمكن ان توضع تحت اطار الرسالة (اللغة) بعمقها وقصورها آلةً للخطاب واداة للتداول بين ابناء البسيطة . ولعل سائلاً يسأل ما المقصود بقصور اللغة ؟ وهل اللغة تنتهي عند حد معين؟

يجيب السيد على ذلك ان قصور اللغة يمكن ان يكون هو المسؤول عن كثير من الظـــواهر الكلامية في حين ان التوسع في اللغة هو الحاجة الضرورية لكثير من الامور كالقوافي الشعرية والسجع ولزوم ما يلزم كما في لزوميات المعري ومقامات الحريري وغيرها [٣٨].

ويتضح هذا القصور او الضيق في (الرسالة) عندما نجد تكراراً او ما شابه ذلك (فأذا لم يوجد في صدد معين الا في ثلاث كلمات او اربع اضطر المتكلم الى حصر حديثـه في نطاق ضيق او الى تكـرار العبارات نفسها لاتمام مقصوده وهذا هو الذي اعنيه من قصور اللغـــة وهو باب واسع قد لايقتصر على هذا المجال)[٣٩] من هنا تأتي الرغبة في التفسير والتجريب وتُوكل مهمة البحث للمتلقي للبحث عن الوسائل التي تجعل استيعاب النصوص ممكناً [٤٠] . وهذا ما ذهب اليه السيد عندما علل لنا عـــدداً من ظهور النسق القرآني اعني نهايات الآيات او الروي وهو ما قبل النهاية كتكرار لفظ الناس في ســـورة الناس والتكرار في سورة (ق) و (ص) وغيرهما من ذلك تغير النسق في سورة ٠مريم) بمقـــدار ست آيات ونحو ذلك [٤١] . وهذا يعود الى ان التكلم ايجاد اعتباري للمعنى في ضمير المتكلم ليستدل به السامع على المعنى المقصود فـأن اعتبارية اللفظ منبثقة من اعتباريته أي من اعتبارية اللفظ على المعنى والغاية منهُ هي الابلاغ والتفهيم [٤٢]

ويُشكل السيد بأنه قد يسأل احدهم ويقول ((ولكن الله قادر على كل شيء)) فهو قادر علـــــى ان يُوجد كلمات كثيرة غير مكررة ولحفظ النسق ,قلت :- هذا وهم فإن القدرة وان كانت تامة ولانهائيـــة في ذات الله سبحانه وتعالى ولكنَّها تتعلق بالممكن والمقدور أما المستحيلات فلا تتعلق بها القدرة كما هو المبرهن عليه في محلَّه عن الكلام لقصور الموضوع لا لقصور الفاعل ومن جملة قصور الموضوع قصور اللغة فأنها ليس فيها من الكلمات ما يكفي لأجل سد الحاجة ولايمكن اختيار الكلمات الا بالمقدار المنـــاسب مع المجتمع وما يفهمه الناس ولا يمكن ان نتكلم بكلام غير مفهوم بأعتبار اتمام السجع أو النسق أو الـــرؤى بطبيعة الحال [٤٣].

٤- أسلوب الأطروحات:

وهي طريقة متبعة في كتابات السيد الغرض منها استنطاق القرآن ومحاولة عرض اكثر من وجه لفهم المراد من الآية اما تعريف الاطروحة فهو : (الاحتمال المسقط للاستدلال المضاد من باب القـاعدة القائلة اذا دخل الاحتمال بطل الاستدلال)[٤٤] اما الفائدةالمترتبة على هذا الاسلوب فتكمن في :

١- بقاء الباب مفتوحاً للزيادة في التفلسف والتفكير كما سبق فبدل من ان نذكـــــر ثلاث اطروحات مثلاً يمكن بعد ذلك طرح خمس أو عشر .

٢- الالماع الى ان الاسئلة المعروضة ضد القرآن الكريم ليس لها جواب واحد بل يمكن ان يتحصل عليها عدة اجوبة ومن جوانب متعددة .

اننا بهذه الطريقة لانكون ممن فسر القرآن برأيه لكي نهلك وانما يكون ذلـك لمـــن بتّ بالامر وجزم بأحد الوجوه [٤٥]. وما تعدد الأطروحات حول النص القرآني الى اشارة بينة الى عمق اللغة واتساعها بحيث يمكن وضع الاحتمال المبطل للاستدلال من خلال القرائن العقلية واللغوية

فـ(لاسبيل لايجاد تفسير واحد لأي نص لأنه سيظل (النص) يقبل تفسيرات مختلفة متعددة بعدد مرات قرءته)[٤٦].

ومع ذلك لانصل الى المعنى المراد لأننا لانستطيع ان نعرف حقيقة اللغة ونحنُ نفكر باللغة نفسها وهي اداة البحث والمعرفة [٤٧].

ومع هذه التعددية للأطروحات لاينبغي لنا ان ندعي ان كل الاحتمالات بالتالي تصلح ان تكون اطروحة بهذا المعنى بل ما يصلح لها وهو ما يمكن للفرد تكثير القرائن على صحتهِ وتجميع الدلائل على رجحانه والا لم يكن اطروحة , بل احتمالاً , ومن الواضح جداً انه ليس كل الاحتمالات على هذا المستوى [٤٨]

ومع ذلك تبقى الاطروحة وهو ذلك الاحتمال المحترم الذي يمكن ان نجمع حوله اقصى مقدار متيسر من الدلائل والاثباتات ,وبذلك يكون اشد اسقاطاً للاستدلال بطبيعة الحال [٤٩]

ومن ثم يمكن القول إنَّ إسلوب الاطروحات الذي دأبَ عليه السيد الصدر هو واقع في صميم الرسالة لان الرسالة لا تُفهم إلا بالكشف والتنقيب عن المعنى الكامن فيها ، والتعددية للاطروحات لفهم النص المبارك جلاء لذالك الكمون ٠

والتطبيقات كثيرة على ذلك قلما تخلو آية منها ، ومثال ذلك قوله تعالى: {إِنَّاأَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} (الكوثر١) فيذهب السيد هنا الى أن المعاني المقصودة للكوثر ثلاث :-(٥٠)

(١)الذرية : بدليل قوله تعالى :(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَالْأَبْتَر}الكوثر٣}٠
(٢)الحكمة: بدليل قوله تعالى{ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ}{البقرة٢٦٩}فهي إذن خيرٌ كثير بالحمل الشائع بنص القرآن فيكون بمعنى الكوثر(٣)حوض الكوثر: او نقول :- ماء في الدار الآخرة أمّا بشكل حوض او في القيامة أو في الجنة وعلى أية حال فأنَّ المعنى مما استفاضتْ به الروايات ، أمّا الزمخشري فقد ذكراطروحتين في معنى الكوثر : (٥١) ١- المفرط الكثير أي الخير الكثير ٠
٢- نهر في الجنة ٠
في حين ذهب احد المفسرين المحدثين الى أن المراد بالكوثر هو الخير الكثير وهو المعنى الذي يشمل أكثر المفردات المتفرقة التي ذكروها كمعاني للكلمـــة مما لا شواهد للمفسرين عليها[٥٢] ثم يستدل برواية عن السيوطي مفادها، (قال أبو بشر:- قلتُ : لسعيد بن جبير فأن أناساً يزعمون أنَّه نهر في الجنة قال : النهر الذي في الجنة من الــخير الذي أعطاه أياه)٠(٥٣)

١- <u>دور المرسل أليه :-</u>

وهو الركن الثالث الذي تتوقف عليه عملية الخطاب فقراءة النص هي التي تُخرجه عن صمتــه وهي التي تُحيل صمته إلى قول معرب ٠(٥٤)وبتعدد القراءة تتعدد ادوار المتلقين ومن ثم تعدد نتائج النص من حيث المعاني الكامنة فيه لاسيما كتاب معجز كالقرآن الكريم فان نتاجه من المعاني يختلف عن أي نتاج آخر لأنه ((المَعِين ألأول الذي نهلتْ منه الحياة العلمية في الإسلام واصطبغت العلوم الإسلامية في نشأتها بنمط تفسير آياته)) ٠(٥٥) وهنا يبـرز دور المتلقي وقابليته في تلقف النص وفهمه كلٌ حسب أتجاهه فمنهم من ينظر الى النص ، من وجهة نظر نفسية أجتماعية فتكون مهمته وفقاً لذلك في الدلالة على المجتمع وواقعه وهناك مـن ينظـر الى النص الى أنَّه وثيقه تاريخية فتقع اهمية وظيفته حسب ذلك في الدلالة على أحــوال الزمان وتصاريفه وثمة مَنْ لايتطلب في النص شيئاً من ذلك على الاطلاق، فكـل الذي يتطلب منه أدبيته فحسب ، ٠[٥٦] وقد يضمحل دور المتلقي ويتلاشى عند التعامل مع النص السطحي لأن النصوصية الخالية من أي احتمال لاتقدم عرضاً مرضياً لمنتجها أي أنَّها لاتملك سوى خيار واحد [٥٧] وبما أنَّ القرآن حمّال ذو وجوه وألون ركز السيد على ادوار المرسل أليــه أي الذي ينقل اليه الخطاب حيث فهمه للمنطوق القرآني اولاً وحسب اتجاهه في التفسير ثانياً ، امــا من هو المرسل اليه فهذا ما سيتضح من خلال اطروحاته التي تشير الى ان المرسل اليه قد يكون النبي وقد يكون أحد المسلمين ، وحيناً آخر يكون الخطاب موجهاً إلى النبي (ص) ألا أنَّ المقصود به المخاطب من باب (أياكِ أعني واسمعي يا جاره) وهي قاعدة عند السيد استعملها كاطروحة في كثير من التخريجات القرآنية ومرة قد يكون الخطاب (لجبرائيل)(ع) وغيرها من التوجيهات وهذا ما سنأتي عليه :-

المرسل اليه هو النبي (ص)كما هو في قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}{الفيل١}، فيذهب السيد إلى أنَّ المراد بالخطاب هو النبي (ص) ويُراد به رؤية النبي (ص) بالعلم الباطن يكشفها الله تعالى له ، والسياق دالٌ على حصول الرؤية فعلاً لأنَّ مؤدى ألاستفهام عن الرؤية استنكاري فيؤدي إلى الجزم بالإثبات ، عن حصول الرؤية والعلم(٥٨)٠

٢- المرسل أليه هو النبي(ص) والمخاطب الناس من قبيل (أياكِ أعني واسمعي يا جاره) كما هو في قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}{الفيل١}،وهنا يذكر السيد كاطروحــة أنَّ المخاطب ليس هو النبي (ص) بل غيره من قبيل(أياكِ أعني واسمعي يا جاره) لأنَّ الفاصل بين نزول الوحي والحادثة أربعون سنة ولم يكن النبي قد شاهدها ألا أنَّ الكثير من كبار السن الموجودين في ذلك المجتمع قد شاهدها فعلاً وهم المخاطبون بالآية الكريمة(٥٩)وكـذلك قوله تعالى {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ }{القارعة٣}إذ علل السيد الخطاب هنا بأنه قــد يكـــون من قبيل(إياك أعني واسمعي يا جاره) ، فهو بالمباشرة خطاب النبي(ص) وبالـــواسطة للمسلمين جميعاً (٦٠) المرسل أليه هو جبرائيل (ع) كمـــا فـــي قـــوله تعالى{ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَـــى لَهَا}{الزلزلة٥}:-(فمعنى أوحى أليها هي السامعة للوحي وأمّا أوحى لها فبمعنى أوحى لأجل مصلحتها ولكن إلى مَنْ يكون الوحي ؟ فهذا مجمل في الآية ولعله إلى بعض الخلق العـــالي كجبرائيل(ع) أو غيره وهذا في نفسه معنى محتمل) (٦١)ومن ثمَّ فأنَّ الوصول إلى المعنـــى الذي تعالجه دلالة الكلمة المفردة (لها)أو(أليها)دليل على (أنَّ حدوث اللغة رهنٌ بوجود الدلالة وحدوث الدلالة رهنٌ بوجود اللغة) (٦٢)

(٤) المُرسَل اليه هو الانسان : كمـــا فـــي قوله تعالى {وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا } (الزلزلة : ٣)

فيذكر السيد ان المتسائل هنا عـــن قوله تعالى (مالها) هو الانسان وينقسم على اقسام : -

- مطلق الانسان او عمومه ... فأنه يســـأل عـــن العلـــة المـاديـة او السبب للزلزله .
- الانسان المطلق ويسأل عن كفر الكافر أسفاً عليه إذا فهمنـــا انّ الارض هنا معنوية بوصف الارض هي النفس الإنسانية .
- المُبتلى بالزلزلة .

- المُشاهد لها وأنْ لم يكن مبتلى بها[٦٣] .

ومن ثَم فأنّ هذا التنوع لأنواع المرسل اليه هو نتاج لتلقي النص أو فهم الخطـــاب من القرآن الكريم حسب ما يفهم من السياق ، وهو مخصوص بفهم السيد وكيفيـــة توجيهه بهـذه الصورة التي ذكرت والتي تدل على((أنّ لكل عصرٍ أدواته التصويرية أو الخيالية فيما يقـــال))[٦٤]

الهوامش:

(١) ينظر: علم اللغة التوحيدي بين النظرية والتطبيق ، د. محمد علي الحسيني : ٢٢٩
(٢) ينظر منّة المنان في الدفاع عن القرآن : ٢١
(٣) ينظر: ما لا يقوله النص ، جبار النجدي : ٨١
(٤) ينظر: في قراءة النص ، د. قاسم المومني : ٧٢
(٥) ينظر منّة المنان: ١٩٨
(٦) الكشاف : ٧٩٢/٤
(٧) من وحي القرآن ٤٢ / ٤٩٣
(٨) ينظر:الإصول المعرفية لنظرية التلقي : ٦١.
(٩) منّة المنان: ١٩٩
(١٠) خطاب الكلمة في القرآن ، د. سمير سلمان: ٢٢- ٣٢
(١١) ينظر: منّة المنان:٢٠٠
(١٢) ينظر : المصدر نفسه : ٣٢٠
(١٣) ينظر : اللغة والمعنى والسياق : جون لاينز : ٢٣٢
(١٤) ينظر : علم الدلالة عند العرب : عادل فاخوري : ١٣
(١٥) منّة المنان: ٣٣٧ – ٣٣٨
(١٦) المُرسل ,الرسول ,الرسالة : محمد باقر الصدر : ٨٠
(١٧) ينظر في قراءة النص:١٣
(١٨) المصدر السابق : ١٢
(١٩) ينظر الأسلوب والإسوبية : بير جيرو : ٤٥
(٢٠) ينظر قضايا الشعرية : رومان ياكوبسن : ٢٧ – ٣٣
(٢١) منّة المنان ١١ - ١٢
(٢٢) المصدر نفسه ١١
(٢٣) المكان نفسه
(٢٤) المكان نفسه
(٢٥) المكان نفسه
(٢٦) اشعة من عقائد الاسلام ,محمد محمد صادق الصدر : ٢٩
(٢٧) منّة المنان: ١٤٥
(٢٨) ينظر : خطاب الكلمة في القرآن: ٤٠
(٢٩) ينظر : منة المنان : ٢٤١
(٣٠) بحار الانوار ، محمد باقر المجلسي : ٣٥ / ٤٠٤
(٣١) المصدر نفسه
(٣٢) ينظر منّة المنان: ٩٣
(٣٣) ينظر من وحي القرآن ٤٦٧/٢٤ – ٤٦٨
(٣٤) ينظر : منّة المنان١٧ – ١٨
(٣٥) ينظر مجمع البيان ، الطبرسي :١٠ / ٥١٧
(٣٦) ينظر : منّة المنان ١٧ – ١٨
(٣٧) ينظر : منّة المنان : ١٢١- ١٢٢
(٣٨) ينظر : منّة المنان ٢١
(٣٩) ينظر : منّة المنان ٢١
(٤٠) ينظر : الأصول المعرفية لنظرية التلقي : ١٥
(٤١) ينظر : منّة المنان ٢١
(٤٢) ينظر شرح الحكمة المتعالية : ٢-٢ نقلاً عن خطاب الكلمة في القرآن : ٢٠
(٤٣) ينظر : منّة المنان ٢١
(٤٤) المصدر نفسه :١٠
(٤٥) ينظر المصدر نفسه :١٠
(٤٦) الخطيئة والتكفير ، الغذامي : ٨٣
(٤٧) ينظر: علم اللغة التوحيدي :٤٥
(٤٨) ينظر : منّة المنان: ١٠
(٤٩) ينظر : المصدر نفسه : ١١
(٥٠) ينظر : منة المنان : ١١٦
(٥١) ينظر : الكشاف : ٦٠٨/٤
(٥٢) ينظر من وحي القرآن : ٢٤ / ٤٤٦
(٥٣) ينظر : الدر المنثور ، للسيوطي : ٦٤٩/٨
(٥٤) ينظر : في قراءة النص : ٣٣
(٥٥) دروس في الفلسفة الإسلامية ، عبد الجبار الرفاعي : ٦٤
(٥٦) ينظر : في قراءة النص : ٢٤
(٥٧) ينظر :مالا يقوله النص : ٧٧.
(٥٨) ينظر : منة المنان ١٣٩ – ١٤٠
(٥٩) المصدر نفسه
(٦٠) المصدر نفسه ٢٢٤
(٦١) المصدر نفسه٢٥٩
(٦٢) في اللسانيات والدلالة . (الكلمة) د.منذر عياشي : ٤٧
(٦٣) ينظر : منة المنان في الدفاع عن القرآن : ٢٥٤
(٦٤) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ،د. جابر عصفور : ٢١٨